تاريخ الخليج والبحر الأ...

ملوك هرمز ومقتطفات

ترجمه إلى الإنجليزية : ويليام إف . ستكلايد
(متقاعد من ديوان موظفي الحكومة في بومبي)

مقدمة وحاشية بقلم : دونالد فيركسيوسوف

ترجمه إلى العربية دكتور : عيسى أمين

مقدمة...

الفصل الأول...

بيدرو تينخس...



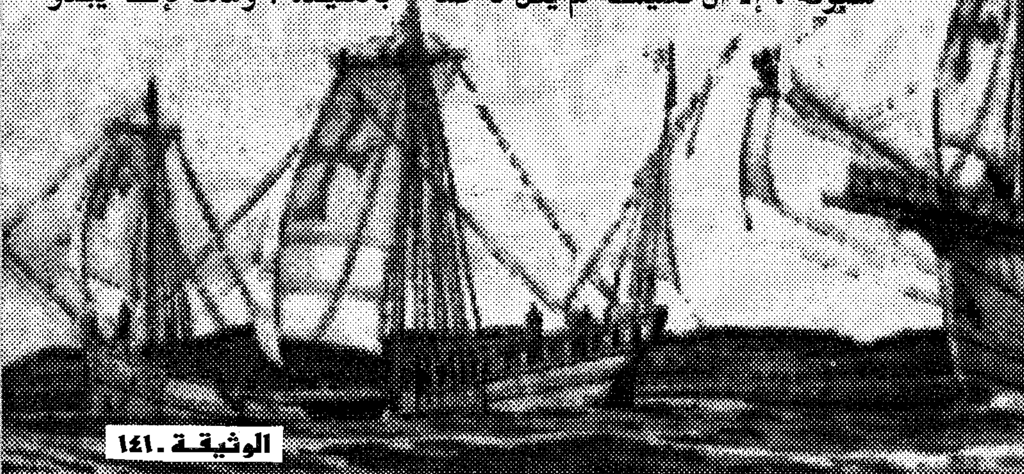
في أسفار بيدرو تينحسيرا

من كتاب ملوك فارس

حباً في معرفة تاريخ الخليج ، ورغبة في دراسة أصول التدخل الأجنبي وأسبابه ، أقدم هذه الترجمة لكتاب نادر وآمل أن ينال إعجاب قراء العربية .

د. عيسى أمين

نحن لا نعلم الكثير عن بيدرو تينحسيرا بقدر ما يذكره هو عن نفسه في كتابه . ولقد جاء ذكره في مقدمة الدكتور إم. كايسر لينج (Dr. M. Kayserling) لكتاب آي . جي . بنجامين (I. J. Benjamin) [ثماني سنوات في آسيا وأفريقيا] طبعة هانوفر ١٨٦٣م قائلاً " أن بيدرو تينحيسرا يهودي من البرتغال ومن اليهود الذين لم يجرؤوا بالإفصاح عن ديانتهم أو تعليم أبنائهم ديانة الآباء ، ورغم أنه ولد لعائلة يهودية في لشبونة ، إلا أن تعليمه لم يكن له صلة بالعقيدة ؛ ولذلك فإنه يبدو



لنا وكأنه لم يكن يحفل بالوازع الذي يفرض عليه التسليم الكامل للخالق (والمغروز فيه بالفطرة) الأمر الذي سوف نرى ملامحه في كل صفحة تقريباً من كتاب أسفاره . . . ورغم ذلك فنحن نعتقد ومن خلال ملخص أسفارهٍ بأنه ولفترة طويلة سابقة لوصوله إلى (أنتوربٍ) كان بيدرو ملتزماً بالعقيدة المسيحية ، وأنه كان كاثوليكياً ملتزماً - رغم وجود كتابات أخرى تنفي ذلك .ويبدو أن نصيبنا في معرفة أي شيء عن عائلته سوف يكون أقل من معرفتنا له شخصياً ، حيث أنه كان يفضل كتمان الأمر مع تصريح عابر بأنه كان عاشقاً للتاريخ في حداثة سنه .

وبما أننا قد سلمنا منذ البداية بجهلنا لهذه الشخصية ، فإننا نستطيع أن نقول الآن أننا نجهل أيضاً مهنته ، أو حتى نشأته العملية في بداية حياته ، مع احتمال بسيط في أنه ربما كان طبيباً أو له صلة بالعقاقير النباتية وذلك لما يذكره هو عن التداوي بالأعشاب ومنافعها في كتابه أثناء رحلاته في الشرق .

ونظراً لعدم ذكره الأسباب الرئيسية لسفره إلى الشرق (الهند) ووصوله إليها عام ١٥٨٧م مع إحدى سفن الأسطول البرتغالي قادماً من البرتغال في عام ١٥٨٦م، فإننا أصبحنا نعتقد أن رواية كوتو (Couto) في كتابه ديكادا ديسيما (Decada Decima) تكاد تبين لنا هذه الأسباب حيث يقول : " لقد بُلِّغ الملك أن بريطانيا تجهز أسطولها للتوجه إلى جهة غير معروفة حتى الآن - ولكن ، وخوفاً من اتجاه هذا الأسطول إلى الهند أو مناطق قريبة من ملقا (Malaka) ، فإنه - أي الملك - يود أن يرسل رسالة عاجلة إلى القبطان المسئول عن القلعة هناك بأخذ الحيطة ، وأن يبلغ نائب الملك في الهند عن الاستعداد لمساعدة الأول في وقت حاجته . لذا أصدر الملك أوامره إلى سفن الأسطول (الغلايين) وخاصة السفينة ريس ماغوس (Reys Magos) للاستعداد بالتوجه إلى ملقا . وتم تعيين القبطان جوا كاكو دي أندرادي (Joao

(Gago de Andrade الرجل الذي سبق له زيارة الهند .

أبحر القبطان المذكور من البرتغال في ٥ يناير ١٥٨٦م وقد أمره الملك استيفاو دا فيجا (Estevao da Veiga) بتسليم رسالة إلى نائبه _ نائب الملك - د. دوارتي (D. Duarte) ورسالة أخرى إلى القبطان في قلعة موزمبيق ، والتي أخبره الملك فيها بإعداد السفن استيفاو دا فيجا وإرسالها إلى الهند للغاية المطلوبة . . . أما باقي سفن الأسطول فقد توجهت من البرتغال إلى الهند في مارس بقيادة القبطان دي جورينمو كوتينو (D. Jeronymo Coutinho) في السفينة القديس توما (s. Thome) ويرافقه القباطنة أنطونيو جوميز (Antonio Gomes) في السفينة كرنجه (Caranja) ومعه مانويل ديسوزا كوتينو (Manoel de sousa Coutinho) والذي قُلِّد الأوسمة لقيادته حامية ملقا ، ورحلته إلى اليابان ، وزواجه من ابنة رجل مسيحي ذي ثروة ، وترشيحه لمركز نائب الملك في الهند ، والذى قتلوه بعد وفاة (دي دوارتي) .

أما السفن الأخرى فكانت السفينة سلفادور (Salvadoar) وقبطانها ميجويل دي ابرو (Miguel de Abreu) والسفينة ريليكوياس (Religuias) وقبطانها فرانسسكو كافاليرو (Francisco Cavalleiro) والقديس فيليب (s. Filippe) وقبطانها جوا تريجيروس Joao (Trigueiros) . ولقد أخذت كل هذه السفن الحيطة والحذر في إبحارها خوفاً من مواجهة مع الأسطول الإنجليزي . ولو فرضنا أن بيدرو تينحسيرا كان على ظهر إحدى هذه السفن فإنه يكون قد وصل إلى جوا في الهند سبتمبر ١٥٨٦م .

ولكن يبدو مرة أخرى أن تينحسيرا لم يهتم بوصف ما رآه في جوا مثل ما فعله قبله الهولندي جان هويجن (Jan Huyghen) الذي ترك لنا وصفاً مصوراً للمدينة التي سكنها لعدة سنوات قبل وصول تينحسيرا .

ولكن نستطيع من خلال قراءة التاريخ أن نجزم أن وصول تينحسيرا إلى جوا تزامن مع استعدادات بحرية أخرى من قبل البرتغاليين للانتقام من الأتراك وحكام سواحل شمال غرب أفريقيا الذين هزموا الأسطول البرتغالي (في البحر الأحمر في شهر مايو١٥٨٧م تحت قيادة روي قونسالفس دا كامارا (Ruy Qon Salves da Cammara) وأسروا الكثير من بحارته .

انتهز تينحسيرا قرار نائب الملك بإرسال أسطول تأديبي للبحر الأحمر والخليج والتي كانت مسئوليته الأولى الإبحار إلى هوفر ، ومن ثم إلى مسقط لبناء قلعة فيها لردع الأسطول العثماني .

في ٩ يناير ١٥٨٧م وتحت قيادة القبطان مارتيم الفونسو ديملو (Martim Alfonso di Mello) أبحرت اثنتان من الغلايين البرتغالية ، ترافقهما ست عشرة سفينة أخرى بجنودها وبيدرو تينحسيرا بعد حصوله على تصريح خاص لمرافقة الأسطول .

كان أول مكان يصل إليه الأسطول في الساحل الأفريقي أمبازا (Ampaza) وقتل ملكها ومساعدوه وأحرقت المدينة وبعدها توجه الأسطول إلى باتي (Pate) حيث طلب الحاكم فيها الرحمة والمغفرة من البرتغاليين ، ثم إلى جزيرة لامو (Lamo) حيث سبق لملكها أن قام بتسليم روكو دي برتو (Roqe de Brito) ومرافقيه إلى الأسطول العثماني .

هرب ملك لامو قبل وصول الأسطول تاركاً زوجته التي قام البرتغاليون بتنصيبها ملكة على الجزيرة انتقاماً من زوجها . . . وواصل الأسطول إبحاره إلى مالندي ، وقام ملكها باستقبال البرتغاليين استقبالاً عظيماً ورافقهم إلى ممباسا .

دخل البحارة البرتغاليون مومباسا بعد استسلام ملكها وسقوط قلاعها وحصونها ، فأحرقوها بعد أن خرج منها ملكها ورعاياه طالباً من البرتغاليين الصفح عنه ومساعدته في عودته إلى ملكه . ورغم وساطة ملك مالندي لم يوافق مارتيم

ألفونسو على ذلك وغادرها هو وأسطوله إلى الخليج ماعدا سفينة واحدة أرسلت إلى نائب الملك في الهند حاملة رأس ملك إمبازا المشوه .

تزامنت مغادرة السفن البرتغالية مع وصول السفينة سلفادور والتي كانت قد أبحرت من (كوشين) في الهند إلى أوروبا في نهاية ١٥٨٦م ، محملة بالتوابل وكانت قد صادفتها عاصفة في الطريق ، قرر قبطانها - بعد الخلل الذي أصاب سفينته - الالتحاق بالأسطول البرتغالي في البحر الأحمر وتم قطرها إلى هرمز حيث تحطمت بعد نقل البضائع إلى سفن أخرى .

ويذكر تينحسيرا لنا أنه في زيارته لمسقط شاهد فيها الكم الهائل من السمك وتعجب من طرق صيده بواسطة البحارة العمانيين .

وصل الأسطول بعدها إلى هرمز ليواصل رحلته إلى جزيرة قشم ولكنه يقفل عائداً لمرض القائد العام مارتيم ألفونسو الذي توفى بعد عودته إلى هرمز ودفن فيها .

في سبتمبر ١٥٨٧م غادر الأسطول البرتغالي هرمز متوجهاً إلى (جوا) تحت قيادة والد زوجة مارتيم ألفونسو ، سيماو دي كوستا ليصل إلى جوا في أكتوبر من نفس العام .

ورغم أن تينحسيرا كان مرافقاً لهذا الأسطول منذ بداية الرحلة في جوا فإننا نجد أن الوصف الوحيد الذي تركه لنا هو عن مدينة مسقط فقط أما المناطق الباقية فلم يذكرها على الإطلاق .

لقد كان الوجود البرتغالي آنذاك يمتد إلى بحر الصين ويتمتع بمراكز عسكرية وتجارية مهمة أسست لثلاث مهمات ، الأولى عسكرية والثانية تجارية ، والثالثة - في بعض المناطق فقط - إدارية ، تدير أمور البلاد الواقعة فيها . ولقد كانت ملقا أحد المراكز الاستراتيجية المهمة في بحر الصين والتي دخلها الملك راجال (Rajal) ملك جوهور (Johor) ، ودمرها في بداية عام ١٥٨٧م ، بعد أن أغلق المسارات المائية بين الهند والصين في مضيق ملقا ، الأمر الذي أدى إلى المجاعة

والتشـرد ، بالإضافة إلى التدمير السابق .

في مارس ١٥٨٧م دعي نائب الملك إلى اجتماع المجلس الأعلى للإدارة في جوا ، وباسين ، وشول ، لمساعدة المدينة المنكوبة .

وفي ٢٨ أبريل ١٥٨٧م توجه الأسطول البرتغالي - المكون من ست عشرة قطعة من الغلايين والسفن الأخرى بكامل عتاده وجنوده الخمسمائة وتحت قيادة د. باولو دي ليما - ووصل إلى مدينة جوهور وأحرقها ودمرها تدميراً كاملاً .

لقد كان الأسطول البرتغالي موزعاً آنذاك بين هرمز ، وشرق أفريقيا ، وجوا . وتدعمه حاميات عسكرية يتحول بواسطتها إلى أسطول حربي في وقت الحاجة ، ويباشر مهمات التجارة في أغلب الأوقات . لقد باشر البرتغاليون سياسة الأرض المحروقة والقتل والتنكيل والاضطهاد أينما حلوا في الشرق ، ولقد طبقت هذه السياسة في هرمز ، ومسقط ، وعدن ، وشرق أفريقيا ، والبحرين ، وجوا ، وملقا ، وفي سيلان (كولمبو) عندما ثار عدوهم الأول كما يطلقون عليه (راجا سينها) ضد الوجود البرتغالي في سيلان . وكانت هذه الثورة من أخطر التهديدات التي واجهها البرتغاليون في الشرق ، حيث استلزم القضاء عليها مشاركة كل الأساطيل البرتغالية .

ويروي لنا المترجم عن هذا العصيان وبدايته في عام ١٥٨٦م عندما حاصر راجا قلعة كولمبو ومنع عنها المؤن ، فاضطرت الحامية المتمركزة في هذه القلعة إلى طلب المساعدة من الهند . ونظراً لعدم وجود سفن الأسطول المطلوبة آنذاك ، تأخر وصول المدد البحري حتى سبتمبر ١٥٨٧ وذلك بعد إلحاح من قائد حامية كولمبو (جو كوريا دي بريتو) . في ذلك الوقت ، قرر نائب الملك (دوم دوارتي) ومجلسه الحاكم في جوا ، إرسال أسطول ضخم إلى كولمبو على أن يلتحق به أسطول (د. باولو دي ليما) والذي تم إبلاغه بالتوجه الفوري إلى سيلان . . . واختير لقيادة سفن الأسطول المشتركة القبطان (مانويل ديسوزا كوتينهو) والذي لقب بقبطان بحر الهند برتبة

(عميد) . ومع استعدادات جوا لإرسال أسطولها وصل أسطول هرمز والخاص بـ (ألفونسو دي ميلو) بقيادة (سيما دي كوستا) ورحالتنا (بيدرو تينحسيرا) ، والذي انتهز فرصة توجه (مانويل ديسوزا) إلى سيلان فالتحق به بعد حصوله على تصريح خاص بذلك .

في ٤ فبراير ١٥٨٨م توجه الأسطول البرتغالي من جوا إلى سيلان وفي مقدمته الغلايين البرتغالية تحت قيادة (مانويل ديسوزا) و (دي جورينمو دي أزفيدو) ومعها ست عشرة سفينة أخرى وستمائة رجل ، ليصل إلى جزيرة (رامس فارام – Rames Varam) ومنها إلى جزيرة (منار – Manar) ثم في النهاية إلى (كاريتيفو – Karaittivu) .

وفي الموقع الأخير أرسلت الرسائل لقائد حامية كولمبو تطلب منه إرسال ضابطين برتغاليين وجنوداً محليين إلى القبطان (مانويل ديسوزا) والذي كان قد قرر إحراق وتدمير المنطقة الواقعة بين (كاريتيفو) و (وكولمبو) .

وصلت المجموعة المطلوبة بقيادتها البرتغالية إلى الموقع المعين بعد أن دمرت كل القرى في طريقها وتم إبلاغ مانويل ديسوزا عن التحصينات الأهلية لمدينة كولمبو وبلدة شيلاو .

بعد وصول هذه الأخبار ، قرر مانويل ديسوزا التوجه إلى بلدة شيلاو التي وصلها بعد أن سبقه دي جورينمو دي أزفيدو إليها وقام بتدميرها وسلبها ثم أحرقها . فتابع مانويل ديسوزا إبحاره إلى كولمبو في ١٨ فبراير مطلقاً مدافع سفنه الحربية ابتهاجاً بالنصر ورفع الحصار عنها .

بعد دخول القوات البرتغالية إلى كولمبو ولقائها مع الجنود المحاصَرين في قلعتها ، عقد مجلس الحرب اجتماعه الأول لتخطيط الأعمال الحربية المطلوبة ضد (راجا) . في هذا الاجتماع كان مانويل ديسوزا مصراً على الهجوم المباشر رغبة منه في الحصول على الثناء والشهرة قبل وصول أسطول (دي باولو دي ليما) .

ومع انعقاد هذا المجلس أرسل راجا سفراءه إلى القادة البرتغاليين طالباً منهم مهلة زمنية ، حتى يتمكن من القيام بالشعائر الدينية في مدينته وعاصمته سيتا فاكا (Sitavaka) ، الأمر الذي جعلهم يعتقدون أنه خدعة وتمهيدا للانسحاب . لذا تقرر الهجوم الفوري في ليلة ٢١ فبراير ، ودمرت القوات البرتغالية تحصينات الملك راجا ، وقتلت رجاله ، وأحرقت قراه . في اليوم التالي وصل أسطول دي باولو دي ليما إلى كولمبو وشارك في أعمال التدمير التي استمرت إلى بداية مارس ١٥٨٨م عندما غادرت الأساطيل كولمبو عائدة إلى جوا .

ورغم الأحداث الجسيمة والتي يتحاشى بيدرو تينحسيرا ذكرها ، نجده يذكر رحلة العودة إلى جوا فقط وينقلها لنا كوتو عن الرحالة تينحسيرا قائلاً : " عاد مانويل ديسوزا في أسطول حضر إلى كوشين وغادرها بعد أن ترك وراءه سفينة كبيرة بقيادة دي جورينمو ومعه سفينتان صغيرتان ، وذلك من أجل لقاء سفن الأسطول العائدة من الصيد وقيادتها إلى جوا .

انتهز بيدرو تينحسيرا فترة بقائه في كوشين ليقوم بزيارة قلاع (كنارا وكانانور) .

في نهاية مارس وصل مانويل ديسوزا إلى جوا ودخلها دخول الأبطال حيث كان في استقباله نائب الملك ومواطنو المدينة . بعدها بأيام وصل دي باولو دي ليما وقام نائب الملك ورعاياه باستقباله استقبالاً أعظم من سابقه . وفي ٤ مايو ١٥٨٨م توفي دي دوارتي دي منزيس (نائب الملك) ودفن في احتفال مهيب في كنيسة ريس ماجوس ونقلت رفاته بعد ذلك إلى أبرشية (الثالوث المقدس) في سانتاريم .

وبعد وفاة نائب الملك فُضَّت الوثيقة الخاصة بتولية السلطة والتي ذكر فيها أن الحاكم القادم يجب أن يكون ماتياس دي البوكيرك (Mathias de Albuquerque) على أن يحكم الهند إلى أن يصل مانويل ديسوزا والذي عُين حاكماً في احتفال مشهود .

بعد عودة بيدرو تينحسيرا من كوشن يبدو أنه بقي في جوا حتى

عام ١٥٨٨م ، ولكنه كعادته السابقة نراه قد وجد لنفسه حجة أخرى للسفر ثانية ، فقد تواردت أنباء عن نية القائد البحري التركي علي بك (والذي هاجم المواقع البرتغالية في شرق أفريقيا عام ١٥٨٦م) في هجوم آخر يتم الاستعداد له ومتوقع حدوثه بنهاية ١٥٨٨ أو بداية ١٥٨٩م .

وكما توقعت السلطات البرتغالية في جوا ، توجه القائد البحري التركي علي بك إلى الصومال ، متوقفاً في مقديشو حيث استقبله الأهالي استقبالاً رائعاً ومنها اتجه جنوباً ، وكان أهالي المدن الساحلية يزودونه بالمال والمؤن ليصل إلى مالندي ليلاً حيث كان القائد البرتغالي فيها (ماتياس منديس دي فاسكونيلوس) على علم بتقدم الأسطول التركي - الذي كانت بعض سفنه قد صودرت في هجوم سابق على الساحل الأفريقي من البرتغاليين - وقد قام القائد البرتغالي بنصب بعض المدافع على التلال الرملية والتي أدى قصفها لسفن الأتراك إلى انسحابها وتوجه علي بك إلى مومباسا لإقامة قلاع تحصينية فيها .

وفي ٣٠ يناير ١٥٨٩م أبحرت سفن الأسطول البرتغالي من جوا متوجهة إلى شرق أفريقيا بعد وصول أنباء عن دخول الأسطول التركي في مياه شرق أفريقيا - وكما كان الاستعداد البرتغالي كبيراً للحملة المتوجهة إلى سيلان فإن الأسطول المتوجه إلى شرق أفريقيا وبقيادة أخي مارتيم ألفونسو (توما ديسوزا كوتينو) كان كبيراً أيضاً حيث اشتمل على عشرين سفينة بين كبيرة وصغيرة ، وتسعمائة من الرجال المسلحين .

واجه هذا الأسطول عواصف قوية أدت إلى فقدان ثلاث من سفنه . ومع وصول السفن الباقية إلى برافا (Brava) في ٢٠ فبراير ، نقلت إلى قائده أخبار علي بك فتوجه في ٢٣ من نفس الشهر إلى أمبازا ، وإلى قلعتها وأميرها الموالي للبرتغاليين ومنها إلى جزيرة لامو ، حيث تلقى أخباراً بمغادرة علي بك من مالندي إلى مومباسا .

في ٣ مارس وصل الأسطول البرتغالي إلى مالندي محاولاً اللحاق بالأسطول التركي ومنعه من الهرب من مومباسا ، وغادر مالندي يوم الأحد ٥ مارس متوجهاً إلى مومباسا ليواجه مقاومة بسيطة من الأسطول التركي .

في ٧ مارس دخل البرتغاليون مومباسا للمرة الثانية ومعهم ملك مالندي وأمير بمبا ليجدوا أن الأتراك قد توغلوا في الغابات .

لم يكن التخطيط التركي جيداً حيث حوصر علي بك وبحارته بين الأسطول البرتغالي بحراً وقبائل الزمبا من جهة اليابسة وفتكت القبائل المذكورة بالجيش التركى مما اضطر قائده وما تبقى من الجنود للتوجه إلى البحر ثانية لتلتقطهم السفن البرتغالية .

وفى ٢٢ مارس غادر توما ديسوزا مومباسا عائداً إلى مالندي يرافقه الجنود الأتراك وقائدهم علي بك والسفن التركية ، وقبل مغادرة البحر الأحمر قام هذا القائد البرتغالي باعتقال ملك لامو وقتله في باتي ، ونصب مرة أخرى ملك بمبا بعد ثورة الأهالي عليه وأخذ وعداً من أمراء أمبازا وملوك باتي وسيو بالولاء لأسيادهم البرتغاليين والتاج البرتغالي . وفي طريق عودته في ١٥ أبريل توقف في سوقطرة في ٢٨ من نفس الشهر للتزود بالماء ، ثم توجه إلى جوا حيث وصلها في ١٦ مايو ودخلها في استقبال مهيب يرافقه علي بك وبيدرو تينحسيرا .

في هذه المرة يبقى بيدرو تينحسيرا لمدة عامين ١٥٩٠ - ١٥٩١ في مدينة كوشين . ويذكر لنا أن وباء الموت الصيني انتشر فيها (الكوليرا الآسيوية) .

وفي ١٥ مايو ١٥٩١م وصل نائب الملك الجديد (ماتياس دي البوكيرك) على ظهر السفينة (بوم جيسوس) بعد سنة من مغادرته لشبونة . وقام (مانويل ديسوزا كوتينو) بتسليمه سيف القيادة .

وفي العاشر من يناير ١٥٩٢م أبحرت نفس السفينة التي جاءت بـ البوكيرك وعلى ظهرها الحاكم السابق مانويل ديسوزا وزوجته وكل متعلقاته النفيسة مع منقولات ثمينة أخرى - متجهة إلى البرتغال .

ولكن ، وفي طريقها إلى موزمبيق تحطمت واختفى كل من فيها وما كانت تحمله إلى الأبد .

ولوعدنا إلى مذكرات بيدرو تينحسيرا ، نجد أنه في عام ١٥٩٣م عاد من الهند إلى هرمزٍ وبقي فيها حتى عام ١٥٩٧م باذلاً كل جهده في دراسة الفارسية وتاريخ فارس ، ومترجماً بصورة ملخصة روايات ميرخواند وتوران شاه . ومقدماً لنا صورة مفصلة من هرمز وأحداثها أيام إقامته فيها .

يذكر المؤلف أنه قام بزيارة مدينة مازاندران وشمال فارس في عام ١٥٩٧م . وفي نفس العام رافق الأسطول مرة أخرى إلى ملقا حيث طلب نائب الملك في الهند من الأساطيل البرتغالية التوجه مرة أخرى إلى هناك استعدادا لهجوم وشيك من البرتغاليين .

بعد وصوله إلى أرخبيل الملايو ، قضى بيدرو تينحسيرا جل وقته في رصد الحياة الفطرية وأنواع النباتات فيها . وانطلاقاً من هذا الفصل من رحلاته يبدأ الرحالة في إعطائنا صوراً متواصلة وكتابات دقيقة عن تنقلاته ، ويذكر في أول فصل من (يوميات رحلتي) أنه في ملقا ، ويود العودة إلى البرتغال عن طريق جزر الفلبين ولذا انتهز فرصة مغادرة السفينة المتوجهة من ملقا إلى الفلبين (حاملة الرسائل من قائد ملقا البرتغالي ، إلى القائد الأسباني في الفلبين يخبره فيها باحتمال دخول الأسطول الهولندي مياه المنطقة) يقول أنه انتهز الفرصة وغادر ملقا إلى الفلبين على ظهر هذه السفينة التي وصلت به في ٢٢ يونيو إلى ميناء مانيلا .

لم يستقر المقام برحالتنا في الفلبين . فقد استطاع الحصول على تصريح من الحاكم الأسباني دوم فرانسسكو تيلو دي منزيس (Dom Francisco Tello de Menzis) في ١٨ يوليو لمرافقة قافلة بحرية من أربع سفن جديدة متوجهة إلى أمريكا . وبعد قضاء فترة قصيرة في مضيق سان برناردينو ، توجهت السفن في اتجاه شمال شرقي لتصل إلى أكابولكو في أول ديسمبر ، ومنها يدخل بيدرو تينحسيرا على ظهر الخيول إلى مدينة المكسيك ، التي وصل إليها في منتصف ليلة عيد

الميلاد ، وذلك بعد ستة أشهر من مغادرته ملقا . وبعدها يغادر في مايو ١٦٠١ متوجهاً إلى البرتغال ماراً بـ سان جوان ، وكوبا ، وبرمودا ، وسان لوكار ، وفي النهاية يصل إلى لشبونة في ٨ أكتوبر ١٦٠١م .

قبل مغادرة بيدرو تينحسيرا ملقا ، أودع مبلغاً مالياً لدى أحد أصحابه طالبا منه إرساله له إلى لشبونة بواسطة السفن البرتغالية ولكن يخيب أمله ولا يصل المبلغ المذكور . لذا نجده ورغماً عنه يقرر السفر إلى الشرق مرة أخرى في ٢٨ مايو ١٦٠٣م على ظهر إحدى سفن الأسطول المتوجه إلى الهند بقيادة بيرو فيرتادو دي مندوكا (Pero Fertado de Mendoca) ويصل إلى جوا في ١٤ أكتوبر من نفس العام .

لقد نال في رحلته هذه ما أراد وقرر العودة بعد خمسة أشهر عن طريق وادي الرافدين .

في ٩ فبراير ١٦٠٤ ، استقل بيدرو تينحسيرا سفينة برتغالية متوجهة إلى الخليج ، فتوقف في اليوم الثاني من شهر مارس في مصيرة ومن ثم حول رأس الحد إلى خليج عمان ويتوقف مرة أخرى في سيفا وبعدها يتوجه إلى هوفر بعد التزود بالماء والخشب من مسقط . وبعد شهر من وصوله إلى هرمز (في ١٤ أبريل) يسافر بيدرو إلى البصرة في سفينة صغيرة تابعة لقبطان هرمز البرتغالي ماراً بالمضيق بين جزيرة قشم واليابسة ، ومن ثم إلى الساحل الشرقي للخليج متخذاً وجهته الشمال الغربي متوقفاً بين فترة وأخرى بسبب التيارات القوية .

كانت أول منطقة ترسو فيها السفينة جزيرة لار (الشيخ شعيب) لتصادف سفينة أخرى قد هوجمت بواسطة أهالي بندر نخيلو . بعد بضعة أيام تتوجه السفينة إلى شيوة وتضطر للعودة إلى هرمز بسبب الرياح العاتية في ٢١ مايو ١٦٠٤م . وفي محاولة ثانية غادر على نفس السفينة (والتي اتجه ربانها هذه المرة في مسار بحري جنوب جزيرة قشم) ، ونجحت هذه المحاولة حيث وصلت السفينة إلى جزيرة خرج في ٢٥ يوليو . وفي تلك الجزيرة يتسلم قيادة السفينة ربان محلي ويبحر بها إلى شط العرب

ورغم بعض الصعوبات تصل إلى هناك في أول أغسطس من نفس العام . ويبدو أن السفينة بقيت في شط العرب خمسة أيام توجهت بعدها إلى مدينة سيراج (Serrage) حيث نقلت حمولتها إلى البصرة .

انتقل بيدرو من سيراج إلى البصرة عن طريق قناة مائية يرافقه تاجر فينيقي واثنان من البرتغاليين كانا معه من البداية في هرمز . وكان لهذا التاجر الفينيقي (السوري) منزل في البصرة قضى فيه بيدرو عدة أيام قبل التحاقه بالقافلة المتوجهة عبر الصحراء العربية يرافقه دييجو دي ميلو (Diego de Melo) بعد حصوله على ترخيص خاص بذلك . هذا الصديق الذي أصبح مصدر إزعاج لحالتنا أثناء رحلته . وكان طريق القافلة المذكورة يمر بمشهد الإمام علي ومن ثم مشهد الإمام الحسين (كربلاء) حيث تزوج فيها رئيس القافلة ودعا جميع مسافريه إلى حفل الزواج .

في ٢٩ سبتمبر توجه أغلب المسافرين من التجار إلى بغداد ، وبقي بيدرو ومرافقه دييجو دي ميلو في كربلاء لعدم توفر الجمال لإتمام الرحلة . وبعد عدة أيام عبرا نهر الفرات ووصلا بغداد في اليوم الرابع من أكتوبر حيث سكن تينحسيرا في منزل صديق من هامبورج كان قد تعرف عليه في الهند وكان هذا الصديق يحاول بفعله هذا رد بعض الجميل لبيدرو الذي كان بدوره قد أحسن ضيافته في الهند . وكان حصار حلب قائماً آنذاك ، لذا اضطر رحالتنا إلى البقاء في بغداد لعدة أشهر .

في ١٢ ديسمبر انتقل بيدرو تينحسيرا ، وصديقه الألماني ، ودييجو فرناندو ، ودييجو دي ميلو من بغداد عابرين الفرات مرة أخرى ليصل الجميع إلى مدينة انا ، ومنها في ١٣ يناير ١٦٠٥م يغادر الجميع إلى حلب على الجمال . وبعد مسيرة ثمانية عشر يوماً وصلت القافلة إلى قرية سكانه حيث يثير دييجو دي ميلو إشكالات جديدة بسبب حماقته . ومن قرية سكانه غادرت القافلة في ٩ فبراير في طريقها إلى حلب وتعرضت أثناء السير لقطاع الطرق الذين لم يتمكنوا من بيدرو وأصحابه . وفي ٥ فبراير وصل

الجميع إلى حلب حيث قضى بيدرو تينحسيرا شهرين في انتظار السفينة التي سوف تقله من الإسكندرونة إلى البندقية .

في الجزء الباقي من هذه الرحلة ، التحق اثنان من التجار الفينيقيين ببيدرو وصاحبه دي ميلو متوجهين جميعاً إلى الإسكندرونة في ٥ أبريل .

وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصل الجميع مرة أخرى إلى الإسكندرونة. وبقوا في هذه المدينة الساحلية إلى أن غادروها في الثاني عشر من أبريل إلى البندقية على متن سفينة فينيقية .

وبعد توقف في ساليناس في قبرص وجزيرة زانتي وصلت السفينة إلى استريا في التاسع من يوليو ومنها انتقل بيدرو وصديقاه في سفينة أخرى تعرضت للعواصف قبل وصولها إلى البندقية في الحادي عشر من يوليو .

ويعلق بيدرو على خبرته في هذه المدينة بأنه " من المستحيل العمل في مكان مستحيل " . لذا غادر بيدرو البندقية بعد زيارته لأغلب المقاطعات الإيطالية إلى مملكة برمونت وجبال الألب وسافوي وفرنسا وهولندا الأسبانية مستقرا في أنتورب .

ويعلق الدكتور كايسر لنج على استقرار بيدرو في أنتورب : " لقد كانت أنتورب أقدم مستعمرة هولندية للمنفيين من الأسبان / البرتغاليين . وفيها استقر بيدرو تينحسيرا ليبدأ طباعة كتابه (أصول وسلالات ملوك هرمز) ويكتب الأسفار من الهند إلى إيطاليا . ونعتقد أنه توفى – هنا وليس في فيرونا – في أواسط القرن السابع عشر باقياً على يهوديته منتقلا مع آبائه إلى عالم آخر أحسن من عالمنا " .

لا نستطيع تأكيد هذه المعلومات المقدمة من الدكتور كايسر لنج ، حيث لا توجد لها مصادر موثقة حتى الآن .

الفصل الثاني

وصول الإنجليز والهولنديين إلى الشرق

كانت السنوات التي قضاها بيدرو تينحسيرا في رحلاته الشرقية (١٥٨٦ – ١٦٠٥م) من أهم السنين في تاريخ البرتغاليين في الشرق . ففي عام ١٥٨٠م نودي بالملك فيليب الثاني (ملك الأسبان) ملكاً على البرتغال أيضاً وبهذا دخلت البرتغال فيما أطلق عليه [ستون سنة من الحبس] والتي أدت إلى فقدان البرتغال لكل مواقع نفوذها في الشرق تقريباً .

هناك حدث آخر وعلى نفس المستوى من الأهمية طغى على تاريخ الأساطيل الأوروبية وهو عودة القائد البحري دريك (Drake) من جولة حول العالم ودخوله بريطانيا دخول الأبطال . وكانت نتائج جولة دريك مؤشراً لحروب دبلوماسية انتهت بصراع بحري مرير بين أسبانيا وبريطانيا .

قبل عودة دريك إلى بريطانيا كان جون نيوبري (John Newbery) قد توجه إلى طرابلس في سوريا (في ١٩ سبتمبر ١٥٨٠م) ومنها إلى وادي الفرات ، ثم فارس ، وهرمز ، وعاد من فارس إلى أرمينيا والقسطنطينية وأوروبا ، ليصل في النهاية إلى لندن في أغسطس ١٥٨٢م .

في بداية ١٥٨٣ توجه نيوبري مرة أخرى ومن نفس الطريق إلى طرابلس يرافقه هذه المرة رالف فيتش (Ralph Fitch) ووليام ليدز (William Leedes) وجيمس ستوري (James Story) . وبعد مرورهم بنفس المناطق التي مر بها نيوبري ، وصل الإنجليز الأربعة إلى مملكة هرمز في ٥ سبتمبر ١٥٨٣م .

أثار وصول الأربعة قائد هرمز ماتياس البوكيرك فأمر باعتقالهم اعتقاداً منه بأنهم جواسيس لدوم أنتونيو ، المطالب بعرش البرتغال آنذاك . وبعد فترة في سجون هرمز ، نُفِي الجميع إلى جوا ، حيث بقوا في سجونها إلى أن استطاع الأب اليسوعي توماس ستيفنز (Thomas Stevens) إخراجهم بكفالة على أن يباشروا مهنة التجارة في جوا .

في ٥ أبريل ١٥٨٥م هرب فيتش ، ونيوبري ، وليدز من المقاطعة البرتغالية ووصلوا بعد عدة أيام إلى بلاط (المغول الأعظم) أكبر في فتح بور سيكري .

في فتح بور قام ليدز بالعمل في بلاط أكبر ، وبدأ نيوبري رحلة العودة في ٢٨ سبتمبر ١٥٨٥ م من لاهور إلى القسطنطينية ، ومنها إلى لندن ، أما فيتش فقد عبر نهر الكانج إلى البنغال ، ثم إلى شيتاكونج وبيجو ، وفي النهاية إلى ملقا في ٨ فبراير ١٥٨٨ ، وينتقل مرة أخرى منها إلى بيجو والبنغال ، وكوشين وجوا ، وشول ، وهرمز والبصرة ، ثم إلى حلب عائداً إلى بريطانيا التي وصلها في ٢٩ أبريل ١٥٩١م .

لقد ذكرنا رحلة فتش بشيء من التفصيل لسببين : الأول أنه كان في ترحال في الشرق في نفس الفترة الزمنية ، حتى أنهما كانا في جوا في نفس السنة ١٥٨٩ ، مع علمنا الكامل بأنهما لم يلتقيا فيها .

والسبب الثاني هو إصراره على زيارة المناطق التابعة للنفوذ البرتغالي مثل ملقا وجوا وهرمز وبقاؤه في الأخيرة خمسين يوماً قبل أن يتوجه إلى البصرة . ولإعطاء السبب الثاني أهمية أكثر نجد أنه في ٢٥ فبراير ١٥٨٥م كتب ملك الأسبان من لشبونة إلى نائب الملك في الهند (دوارتي دي منزيس) قائلاً : " أخبرني نائب الملك (دي فرانسسكو ماسكريناس) بأن قائد قلعة هرمز ماتياس البوكيرك أرسل له أربعة من السجناء الإنجليز الذين وصلوا إليها عن طريق البصرة وأثاروا الشكوك في أنهم مرسلون من قِبَل دوم أنتونيو ويحملون رسائل منه ، ولكنهم يدّعون أنهم من التجار . لقد قام قائد قلعة هرمز بإيداعهم السجن إلى أن نقرر شأنهم ، إنني أعتمد عليك في معاقبتهم بما تراه مناسباً إذا ثبت جرمهم ، وذلك بعد استقصاء الحقائق بصورة خاصة على أن تتخذ الإجراءات اللازمة لمنع حدوث مثل هذا في المستقبل ، وعدم السماح لأمثالهم بالدخول إلى ممتلكاتنا وخاصة هرمز التي نعتبرها المنفذ الذي يمر فيه أمثالهم وسوف تخبرني بما قمت به " .

إن أهمية السبب الثاني تبدو لنا أكثر جاذبية الآن خاصة لو عرفنا أن هرب هؤلاء السجناء من السجون البرتغالية في جوا حدث بعد شهرين من وصول نائب الملك ، الذي كتب له الملك فيليب توجيهاته ، لذا نجد استياء

الملك من هذا الحادث واضحاً في رسالته إلى نائب الملك في لشبونة في ١٣ فبراير ١٥٨٧م : " إنني مستاء جداً لهرب الإنجليز الذين أخبرني عنهم ماتياس البوكيرك ، وقام بإرسالهم من قلعة هرمز إلى سجون جوا في عهد فرانسسكو ماسكاريناس ، والذين توفى اثنان منهم بعد هروبهم وبقي آخران في مناطق أخرى (أحد اللذين ما زالوا أحياء هو ستوري الذي بقي في جوا وعمل بالرسم ، والثاني هو ليدز ، أما الميتان منهم فالقصد هنا نيوبري ولانعلم عنه شيئاً ، أما فتش فنحن نعلم أنه لم يمت) إنني أطلب منك البحث عنهم وإلقاء القبض عليهم وأن تؤمن وتشدد حمايتهم ، وأن تحقق في ملابسات هربهم ، وأن تجد الأشخاص المشتركين معهم وتخبرني بقرارك " .

بعد عامين من الرسالتين المذكورتين كتب الملك رسالة ثالثة إلى نائبه : " إن ما ذكرته لي عن توقعاتكم بوصول دوم أنتونيو حاكم كراتو السابق ، واحتمال وصوله طرفكم والاستعدادات التي قمت بها قبل حلول الشتاء لحماية مضيق مكا ، صار معلوماً . أما بخصوص الإنجليز الأربعة الذين توجهوا إلى الهند في عهد الكونت دوم فرانسسكو ماسكاريناس والذين اكتشفتم أنهم من التجار وقد توفى ثلاثة منهم وبقي الرابع في جوا وتزوج بها ومارس مهنة الرسم ، فإني أطلب منكم التأكد مرة أخرى عن القصد من زيارتهم " .

ويذكر الملك أسماء هؤلاء الإنجليز في آخر رسالة له بتاريخ ١٢ يناير ١٥٩١ مرسلة إلى نائبه يقول : " بالنسبة للإنجليز الثلاثة والذين هربو إلى الهند واثنان منهم في عداد الموتى ، أود أن أخبركم بأن تطلبوا من الإنجليزي الرابع ، والذي يمارس مهنة الرسم في جوا الآن ، مغادرة المناطق التابعة لي والعودة إلى بلاده في أول سفينة متجهة إلى هناك " .

إننا نذكر هذه الرسائل والأوامر الصادرة من الملك بشيء من الغرابة ، حيث أنه وبرغم إنذارات الملك إلى نوابه نجد أن فتش يقضي فترة في ملقا ١٥٨٨ ويعود إلى كوشين ١٥٨٩م ويبقى فيها سبعة أشهر دون أن يتعرض له أحد من البرتغاليين ومن ثم وصوله إلى هرمز ومغادرته إلى لندن دون اعتقال أو تحقيق .

وربما يرتبط هذا كله بتصرفات شخصية أخرى ذات أهمية كبرى في

وصول الإنجليز والهولنديين إلى الشرق حيث أنه وبعد شهرين من مغادرة رالف فتش وأصدقائه لندن ، يتوجه في ٨ أبريل ١٥٨٣ رجل هولندي يدعى جان هويخن لينشوتين (Jan Huyghen Linscoten) من لشبونة إلى الهند .

لقد كتب هذا الهولندي الكتاب المشهور المسمى (إيتنراريو) أو المذكرات الخاصة والتي نعتقد أن بيدرو تينحسيرا قد قرأه قبل البدء في كتابه ، ومع تواجد الاثنين في جوا في عام ١٥٨٨ إلا أننا نعتقد انهما لم يلتقيا ، ولكن نكاد نجزم بأنه لو لم يكتب الهولندي كتابه ، لكتب تينحسيرا كتاباً مماثلاً لذلك .

ورغم أن الهولندي قد غادر كوشن بعدة أشهر قبل وصول فتش إلى البنغال ، إلا أن الأول لم يصل إلى لشبونة إلا بعد ثلاث سنوات في ٢يناير ١٥٩٢م .

ووصل فتش إلى لندن في ٢٩ أبريل أي قبل وصول الهولندي إلى لشبونة ، وقبل ثلاثة أسابيع من مغادرة أول أسطول إنجليزي إلى الشرق تحت قيادة القبطان ريموند (Raymond) والذي استطاعت سفينة واحدة من الثلاث (Edward Bonaventure) إكمال الرحلة تحت قيادة القبطان جيمس لانكستر (James Lancaster) .

إننا نعتقد بأن قرار الإنجليز بإرسال أسطولهم إلى الشرق هو الذي أثار موضوع كتابة الرسائل من ملك الأسبان لنائبه في الهند في ٢٦ مارس عام ١٥٩١م قائلا : " لقد بلغت قبل عدة أيام أن هناك استعداداً في إنجلترا لإرسال السفن إلى جزيرة سانتا هيلانة لانتظار السفن القادمة إليها ، لذا ننصح السفن المتوجهة في ذلك الاتجاه أن تحمل ما يكفيها من الماء وعدم التوقف في هذه الجزيرة . وإذا ما اضطروا إلى التوقف فلتكن (أنجولا) . وعلى جميع السفن الانتظار في كورفو في بحر الأزور ، حتى يتمكن الأسطول من مرافقتهم في رحلة العودة إلى لشبونة " .

ولدينا اليوم وثيقتان برتغاليتان عن رحلة لانكستر . الأولى كتبت بعد سنتين من بدء رحلته إلى الشرق ويقول فيها الملك : " صديقي نائب الملك ، أنا الملك أرسل لك تحياتي ، لقد كتب لي لويس فرنانديس دوارتي [والموجود في بلاط الملك شريف في مراكش] أنه يوجد في مراكش رجل إنجليزي يتحدث عن

مناطق تجارية بعيدة مثل سومطرة وبيجو ، والتي لا توجد لنا قلاع فيها . وأنصح أن نباشر العمل في ذلك وأن نقوم بالتبادل التجاري مع أهالي هذه المناطق . إن هذا الإنجليزي يحاول الحصول على المساعدة من أهل مراكش على المعلومات التي سوف تساعده في الوصول إلى هذه المناطق . ومع وجود الشكوك في تمكنه من ذلك أرجو منك أن تمنع أي إنجليزي من وضع قدمه في هذه المناطق من أجل التجارة . وأن ترتبط بملوك هذه المناطق بمعاهدات صداقة مع دولتنا أو مع الدول الحليفة لنا ، والقريبة منهم "

كُتب بلشبونة في أغسطس ١٥٩٣م

استطراد :

وعليك أن تعلم أن الإنجليزي المذكور قد ذكر لنا أنه ومنذ سنتين غادرت إنجلترا سفن تحت قيادة القبطان تمبرتو (Tembertoe) والذي وصل إلى هناك واستولى على اثنين من الغلايين ، لذا فإنك ترى الآن أهمية ما ذكرته لك ، وسوف تنفذ ذلك " (يذكر السفير الفينيقي في البلاط البرتغالي أن السفن الإنجليزية هاجمت أربع سفن لشركة الهند الشرقية واستطاعت أن تستولي على اثنتين ، وقامت بإغراقهما) .

في الوثيقة الثانية والمرسلة في أول مارس ١٥٩٤ يذكر الملك لنائبه في الهند مايلي : " لقد أخبرتني بأن السفن الإنجليزية قد وصلت إلى تيتانجون وعلى بعد ستة فراسخ من موزمبيق ، وأن الدوم جيرونيمو دي ازفادو منعهم من التزود بالماء . إنني أهنئ الدوم على فعله هذا . وعلمت منكم حالة التوتر التي سببتها هذه السفينة ، والخوف من وصول غيرها . أرجو منك مراقبة الأمور بدقة ومنع مثل هذه السفن من الوصول إلى هذه المواقع ومحاربتها ، واجعل منهم عبرة للآخرين حتى لايجرؤ أحد غيرهم على ذلك ، وأعلم أنك سوف تقوم بذلك " .

لم تكن رحلة لانكستر موفقة كما أرادتها بريطانيا ، وبناءً على نتائجها قرر الإنجليز التريث قبل إرسال أساطيل أخرى إلى الشرق .

ولكن يبدو أن بلاداً أخرى أخذت الفكرة وأرسلت هولندا سفنها الأربع في ١٢ أبريل ١٥٩٥م تحت قيادة كورنيلوس دي هوتمان (Cornegis de Houtman) متجهة إلى أرخبيل الشرق

حاملة معها دليل البحر للهولندي لنشوتين [والذي طبع في نفس العام في هولندا] . ومثل المحاولات البريطانية ، انتهت هذه البعثة بكارثة تذكرها رسالة الملك في ١٣ يناير ١٥٩٨م إلى نائبه في الهند : " إنني قد وصلتني الأخبار من الهند والتي تذكر وصول سفراء ملك هولندا الملك أشين (Achin) إلى نائب الملك ماتياس البوكيرك محاولين عقد معاهدات صداقة وأمور أخرى ، لقد علمت أنهم غادروا الهند خائبين . ورغم أن هذا الملك [أي ملك هولندة] قام بنقل أسقف الصين والبحارة البرتغاليين الذين تحطمت سفينتهم ، وذلك رغبة منه في الصداقة والمودة معنا . مع ذلك أنا في انتظار رسائل ماتياس البوكيرك ومنك أيضاً وأطلب منكم ذلك .

لقد أرسلت لكم رسائل مماثلة عن طريق البر بعد وصول السفن الأربع ، والتابعة لأسفار العام المنصرم ، وقد أخبرتكم في تلك الرسائل عن كل شيء وكيف قام نفس الهولنديين بالتعرض للسفن المذكورة في جزيرة سانتا هيلانة . هذه السفن كانت تحمل الفلفل والأعشاب من سومطرة وجاوة . إنني أعلم أن هولندا سوف ترسل سفناً أخرى إلى هذه المناطق ، وأن ملك هولندا الذي أثاره فشل مهمة سفرائه سوف يحاول مرة أخرى ، لذا أطلب منكم إرسال الأسطول إلى بحر ملقا ليكون مستعداً لمنع مثل هذه السفن من دخول موانئه وأن تحاربهم بكل ما يتطلبه ذلك من قوة وعتاد وألا تمد يد الصداقة لهم " .

وفي رسالة أخرى في ٢٦ يناير ١٥٩٨م يشير الملك مرة أخرى إلى سفراء الملك أشن _ ملك هولندا – ويكتب إلى نائبه أن يبدي الود لهؤلاء السفراء الآن حيث أنه [أي ملك أسبانيا] لا يستطيع أن يعادي ملك هولندا ، خاصة وأن سفن هولندا تجوب الآن البحار التي يسيطر عليها البرتغاليون فيقول : " إنك تذكر أن سفراء ملك هولندا عادوا في السابق خائبين من جوا بعد أن فشلوا في الحصول على مطالبهم في عهد نائب الملك ماتياس البوكيرك ، إنني سوف أرسل له [أي لملك هولندا] وأخبره أنه يستطيع إرسال سفنه الآن وأنهم يستطيعون التعامل في التجارة مع جزيرة سومطرة . ولك أنت والمجلس الحاكم القرار " .

في ١٠ مارس ١٥٩٨م كتب الملك مرة أخرى إلى نائبه في الهند : " إنه

وفيما مضى كان المطلوب من سفننا الانتظار في سانتا هيلانة لفترة من الزمن لا تتعدى العشرين من شهر مايو ، ولقد تبين لنا الآن أن الفترة المذكورة يمكن امتدادها إلى نهاية شهر مايو والسبب في ذلك أن إحدى سفننا أضطرت لمواجهة السفن الهولندية هناك بسبب تأخرها ووصولها وحيدة إلى سانتا هيلانا ، المطلوب الآن الحذر الشديد عند التوجه إلى سانتا هيلانا حتى لا تفاجئهم السفن الهولندية " .

يزداد الوضع تأزماً بين هولندا وأسبانيا مرة أخرى ، لذا نجد بعد أسبوع من الرسالة السابقة ، يوجه الملك رسالة أخرى إلى نائبه في الهند قائلاً : " الكونت والقائد البحري ، صديقي نائب الملك ، والإنسان المحبب لدي بعد أن كتبت لك سابقاً عن هذا الموضوع [بخصوص الهولنديين] وأسفارهم إلى الجنوب . إنني متأكد أنك اتخذت الخطوات اللازمة لإبادتهم في بحر ملقا وأنه أصبح الآن من الضروري إرسال سفينة أو اثنتين إلى هناك - بدلاً من أن تأخذ اثنتين من خمس سوف تتوجه إليكم هذا العام - وسوف يتوجه إليكم كوزمو دي لافيتا (Cosmo de Lafeta) الذي سوف يكون مسئولاً عن السفن المرسلة إلى ملقا لقطع الطريق على الهولنديين ، ويبدو لنا أن إنجاز هذا الأمر سوف يكون أسرع بإرسال سفينة من جوا إلى ملقا بدل الانتظار لكي تنفذوا هذه الأوامر المرسلة لكم والتي أهم شيء فيها تحقيق رغبتي وعدم الاهتمام بأي شيء آخر ، والوصول إلى هدف تحطيم هذا التدخل وصيانة كرامة سفننا "

وقّعت هذه الرسالة بواسطة الأمير في ١٧ مارس ١٥٩٨م وذلك لشدة مرض الملك الذي توفى في ١٣ سبتمبر من نفس العام .

وعندما كانت السفن البرتغالية جاهزة للتوجه إلى الهند حاملة الرسائل الملكية المغلقة إلى نائب الملك في ٥ أبريل ١٥٩٨م أرسل سكرتير الملك الملحق التالي مع هذه السفن ،وبأمر من حاكم البرتغال : " وفي يوم مغادرة السفن وصلتنا رسالة من جزيرة ماديره تخبرنا عن توجه الأسطول الهولندي إلى الجنوب . لذا وجب عليك حسب تعليمات الحاكم أن تقوم يا صاحب السعادة بالاحتياط اللازم في خليج انتاو جل (Antao Gil) ، في جزيرة ساو لورنسو (Sao Lourenco) . وعليك بمعاقبة البرتغاليين الذين تسببوا في حوادث جزيرة جاوة الكبيرة ، خاصة

أصحـــاب الأسمـــاء المذكـــورة في نهايـــة الفقرة ، ومرفق مع هذه الأوامر ، أوامـــر أخرى سوف يقـوم بتنفيذهـا كوزمـو دي لافيتا " .

كُتبت بواسطة سكرتير حاكم البرتغال
- دييجو فيلو (Diogo Velho)

لقد كانت الرسالة التي وصلت مــن جزيـرة مـــاديره ، تحمــل المعلومـــات الآتية :

ملخص لرحلة السفن الهولندية

خليج انتاو جل الواقع قرب جزيرة س. لورينسو والــذي يوجـد علـى موقـع ١٦° شرق الجزيرة المذكورة ، وهو خليج متسع وتقع فيه عدة جزر صغيرة إحداها شديدة الارتفاع . ويوجـد خلفهـا موقـع مناسـب لرسـو السفن . وهـذه الجزيـرة المذكورة مسكونة وتنتج كمية كبيرة مـن الفواكه مثل البرتقال والحمضيات وفيهـا أعداد كبيرة من الحيوانات مثـل الأبقـار والأغنام وبها مائتا منزل .

في خارج هذا الخليج تقع جزيـرة سانتا ماريا والتي وجد فيها الهولنديـون الفواكـه والسمك . ولقـد واجههـم تيـار مائي قوي في المضيق الواقع بـين جزيـرة جاوة الصغيرة وجزيرة بالي ، منعهم مـن التوقف . فتوجهوا مــن جزيـرة بـالي إلى الغرب والجنوب الغربي حتى وصلوا إلى بنتـاو (Bentao) في جزيـرة جـاوة الكبيرة حيث حملوا سفنهم بالبضائع لقـد قـابل الهولنديـون الكثـير مــن البرتغـاليين في جزيـــرة جـاوة الكبـيرة والذين قاموا بالـترحيب والاحتفاء بهـم وزودوهـــم بالمعلـــومات وبالأســـرار التجارية ، خاصة عن الفلفل الأسود وما قد يعود به من ربح إذا هم تاجروا به .

ونذكـر مـن البرتغـاليين بيـدرو دي أتيد (Pidro de Attide) مـن ملقا الذي أخبرهم بما يحـاك لهـم سراً مـن قِبَل البرتغاليين ، وحذرهم مـن المخـاطر التي تنتظرهم من أهل جاوة إذا ما نفذوا تهديدهم ، ولذلك نجـد أنـه وبمسـاعدة هـذا البرتغـــالي وغـــيره عـادت السـفن الهولندية من هناك سالمة " .

لقـد كـان فشـل البعثـة الإنجليزيـة الأولى هـو الدافـع الرئيسـي وراء البعثـة المكلفة من قِبَل الملكة اليزابيث ، والـتي تكونـت مـن ثـلاث سفن تحـت قيـادة السـير روبـــرت دودلي في عـام ١٥٩٦م (Sir Robert Dudley) ، الـذي كـان يحمـل رســالة إلى امـبراطور الصـين . وكـانت السـفن البريطانيـة الثـلاث [ذا

بـير – وبـيرويلب – وبنجـامين] هـي ثـالث مجموعـة مـن السـفن البريطانيـة تحاول أن تجد طريقها إلى الشـرق , ولم تفلـت هـذه السـفن مـن العـين الراصـدة للأسطول البرتغالي . لذا نجد أن الغرفـة التجارية في جوا تكتب للملك في ديسمبر ١٥٩٧م مـايلي : لقـد قضـى الكونـت نائب الملـك الشـتاء في مومباسـا ، ولقـد وجـد حالـة الاستعداد البحـري مزريـة جـداً ، ولذلـك أخـذ في الإصلاحـات البحريـة وطلـب بنـاء السـفن الخفيفـة والسـريعة ، ولقـد أبلغـه قبطـان قلعـة موزمبيـق بأنـه شـاهد في يوليـو المـاضي سـفينتين إنجليزيتين في البحـر المقـابل لقلعة موزمبيق ، مما دعا الكونت نـائب الملك أن يعجـل بـإنزال الأسـطول إلى البحـر إضافـة إلى شـراء سـفينة كبـيرة بمبلـغ سـتة عشـر ألف بـاردوس (Pardaos) وسـفينتين ملكيتـين كبيرتين وتسع سفن صغيرة قام أيضـاً بشرائها لعدم تواجد سفن تابعة لصاحب الجلالة آنذاك في أحواض السفن ولقد تم تجهـيز ستمائة مسـلح تحـت قيـادة لورينسو دي برتو ، وتوجـه الجميـع في ٢٠ سبتمبر إلى ملقا لاعتقادهم أن العـدو قد توجه إلى هناك وسوف يتخلص منـه أسطولنا . نـود أن نبلـغ جلالتكـم أن تصرفات نـائب الملك كـانت عظيمـة ، خاصةً إذا علمنا أنه في السنوات الماضية قـامت السـفن الإنجليزيـة في البحـار الجنوبية باحتجاز سفينتين تابعتين لنـا كانتا متوجهتـين إلى البنغـال ولم نسمع عنهمـا شيئاً ، لـذا نطلـب منكـم يـا صاحب الجلالة إمدادنا بالمـال والرجـال والعتاد وبأسرع وقت ممكن " .

ويكتب الأب جو دي سانتوس مـن موزمبيق مؤرخاً هذا الحدث في كتـاب (أثيوبيا الشرق) :

" عندما وصلنا إلى موزمبيق ، كـان القلق مسيطراً على أهل البلاد ، وكـانوا في خـوف عظيـم مـن وصـول الأسـطول الإنجليزي ، وذلـك بسـبب المعلومـات الواردة عن طريق البـر مـن البرتغـال إلى الهنـد والـتي قـام حـاكم الهنـد مـانويل ديسوزا بإبلاغها إلى القلاع البرتغالية .

لقـد انتقـل أهـل البـلاد بمتـاعهم ومحـاصيلهم إلى القلعـة الـتي أصبحـت مزدحمـة _ زيـادة علـى دعـوة قـائد الحـامية دوم هورنيمـو دي أيزفيـدو (Dom Hieronymo de Azevido) لقائد مالندي براس دي أجويار (Bras de Aguiar) بالانسحاب من قلعتـه إلى موزمبيق .

لقد وصل الأخير في سفينتين مع رجاله وبارجتين محملتين بالمؤن ، ومع كل التوقعات والاستعدادات لم يصل الإنجليز إلى موزمبيق إلا بعد سنتين ، وفي سفينتين فقط (في ١٣ يونيو ١٥٩٧) توجهتا إلى البحر الجنوبي – إلى ملقا – علماً بأنه في عام ١٥٩١ – أي قبل ست سنوات – زارت موزمبيق سفينة إنجليزية واحدة فقط ، وكانت أول سفينة إنجليزية تتوجه إلى الهند منذ عهد فرنسيس دريك . هذه السفينة المذكورة توقفت في تيتانجون [مورد مائي مشهور] وتزودت بالماء في ٢٧ أكتوبر وتوجهت بعد ذلك إلى ملقا .

أما كوتو (Couto) فهو يذكر هذه الأحداث بعد وصوله إلى جوا في موزمبيق في ١٩ أغسطس ١٥٩٧ .

" لقد نقل قبطان هذه السفينة رسالة من قبطان القلعة في موزمبيق والتي يذكر فيها أن سفينتين هولنديتين (إنجليزيتين) وصلتا إلى ميناء تيتانجون على بعد خمسة فراسخ من موزمبيق وتزودتا بالماء . وبدا له أنهما متوجهتان إلى سوندا . لقد قلق الكونت والمدينة وأهلها لمثل هذه الأخبار وطلب الحاكم – حاكم جوا – انعقاد المجلس ودعا إليه الضباط والأسقف الأب اليكسيو دي منزيس ، وكل الضباط المتقاعدين وأطلعهم على هذه الرسالة ، وأخبرهم بخطورة الأمر فيما لو وصلت هذه السفن إلى ملقا ، خاصة وأنهم ربما يثيرون البلاد المجاورة ضد قلعة ملقا . ويتعرضون لتجارة الصين واليابان والهند . ولقد أخبر الكونت المجلس أنه على استعداد لتنفيذ قراراته (المجلس) لأنه لديه ما يكفي من الغلايين والرجال والعتاد ، وسوف يدافع عن حق الملك ، وأنه قد جاء إلى الهند للدفاع عنها وليس للراحة . وطلب من أعضاء المجلس إعطاءه رأيهم كتابياً بما يرضي الله والملك ، في اليوم التالي جاء الجميع وأعطوه آراءهم مكتوبة ، واتفقوا على إرسال سفينتين كبيرتين وثلاث عشرة سفينة أخرى ، وخمسمائة من الرجال المسلحين . وكان ذلك في اعتقادهم يكفي للبحث عن هذه السفن – الهولندية – وتأمين المسارات البحرية للصين واليابان .

وبعد الاتفاق ، توجه القائد البحري العام ، الكونت نائب الملك إلى حوض السفن الخاص بالأسطول ، ونظراً لعدم وجود المشرف المسئول (وذلك لأن المسئول الذي عين في عهد

ماتياس البوكيرك – فيسينسييو دي بوني قد توجه إلى البرتغال في يناير ١٥٩٧ بعد أن أُبلغ بوصول الكونت القائد العام إلى جوا) وكان الكونت غير راغب في تعيين أحد في هذا المنصب لأنه أراد الاحتفاظ به لنفسه ولكن وفي هذه الظروف قام بتعيين دي فرانسيسكو دي نورونها D. Francisco - de) Noronha (مسئولاً طالما بقيت مسئولية الأسطول المذكور . وعين أخاه دي لويس دا جاما (D. Luiz da Gama) مسئولاً عن مخازن السلاح والذخيرة ، وعين دي أنتونيو دي ليما D. Antonio) de Lima (مسئولاً عن مخازن المؤن . وطلب من ضباط الجمارك مساعدته وإطاعة أوامره .

وعين لورنسو دي بتو قائداً عاماً للأسطول المزمع إرساله إلى ملقا . ولم يستقر نائب الملك حتى أكمل كل التجهيزات اللازمة ، ودفع ثلاثة أرباع أجر كل جندي وعامل على هذا الأسطول . ونتيجةٍ للسرعة التي لازمت الاستعدادات ، جُهز الأسطول المذكور والذي استقل سفينته الكبرى القائد العام ، واستقل السفينة الثانية القبطان بيريرا كوتينو (Pereira Cotinho) أما الباقي فواحدة للقبطان د. لويس دي نورونا ابن كوند دي ليناريس والذي جاء إلى البرتغال عام ١٥٩٥م حاملاً معه لقب القائد البحري ، وسفينة أخري بقيادة جورينمودي نورونها ، ابن أنتونيو دي منزيس . هذا بالإضافة إلى سفينة أخرى في انتظار الأسطول في ملقا مع قبطانها روي دياس دي أجواير . أما السفن الصغرى وعددها تسع بقيادة القبطان دي فرانسيسكو هيرنيكي (D. Francisco - Herniques) وهو قبطان قلعة ملقا ، والقبطان استيفادو تينحسيرا دي ناسيدو Estevado) Teixcira de Nacedo (وهو قبطان قلعة موزمبيق ، وألفونسو دي منزيس ابن فرانسيسكو دي سيلفا دي منزيس ، ونيكولاو بيريرا دي ميرندا ابن هنريك هنريكور دي ميرندا ، ولويس لوبيز ديسوز ، جيرونيمو يوثيلو ، وجورج دي ليمابارتو دي – ديجولوبو ابن دي رودريجو لوبو ، وجو د. سينحاس .

غادر الأسطول جوا في يوم الأحد الرابع والعشرين من سبتمبر . أما عن السفن الهولندية (الإنجليزية) فإنها وبعد تزودها بالماء في تيتانجون توجهت إلى قبالة جوا ، ومنها إلى ملبار إلى رأس كوميريم وهناك احتجزوا السفن التجارية المتوجهة من جوا إلى البنغال ، ومحملة

بـالأرز . وبعـد صـدام معهـا صـادروا حمولتها وسرقوا مبالغ كبيرة من المال ، ولكنهـم أطلقـوا سـراحهم بعـد ذلـك وأرسلوهم في طريقهم متوجهـين إلى ملقـا – ووصلوها كما سوف نرى لاحقاً .

ويذكر كوتو عن الأسـطول البرتغـالي – المرسل لتعقب اسـطول الهولنديـين – بأن هذا الأسطول أي البرتغالي وصـل إلى ملقا في ٢٤ سبتمبر ١٥٩٧ ماعدا سـفينة واحدة بقيادة لويس لوبيز ديسوزا والـتي تحطمـت قـرب منـار ، ولكـن التحـق القبطان والجنود بسفينة أخرى والتحقوا بالأسطول البرتغالي في ملقا .وبلغت أنباء السـفن البرتغاليـة إلى القبطـان البحـري لورينسو دي برتو في ملقـا وأخـبر بأنهـا متواجدة في رأس كوميريم ، قام القبطـان البحـــري بدعـــوة مجلـس الحـــرب للانعقاد ، فقرر المجلـس بكـل أصواتـه بأنه يتحتم على القبطان البحري التوجه بكامل أسطوله إلى سوندا وساحل جزيرة جاوة لتأديب السـكان المحليين الذيـن ثـاروا علـى الوجـود البرتغـالي المسـيحي فيهما وسرقوا ممتلكاتهم .

هـذا إلى جـانب دعـوة ملوكهـم إلى عدم الاتصال بأية قوة أوروبية أخرى إذا مـا دخلـت سـفنها إلى موانئهـم ، ومـن ضمـن التوجيهـات إلى القـائد البرتغـالي بأنه يتحتم عليه إلقاء القبض على اثنين من الإنجليز في جزيرة بالي [الحقيقة أن الكـاتب هنـا يخطـئ كـل مـرة ويسـمي الهولنديين إنجليزا حيث يؤكد المترجم بأن المذكورين هما هولنديين تخلفـا عـن أسـطول هولنـدا الـذي قـاده هوتمـان إلى تلـك الأراضـي في ١٥٩٧م ولم يلحقـا بالأسطول عند مغادرته جزيرة بالي وبقيا بين الوثنيين فيها] .

عندما غـادر الأسـطول بـأمر نـائب الملك طلب منهـم الأخـير عـدم التعـرض لأيـة سـفينة متجهـة إلى سـوندا وجـاوة ورغـم ذلـك قـام القـائد العـام للأسـطول بمصادرة أغلب محتويـات السـفن الـتي صادفها في طريقه ، فسبقته هذه السـفن إلى المكانين المذكوريـن وأخـبرت الأهـالي بما حصل لها ، فاستعد النـاس لوصـول أسطول البرتغال .

عنـد وصـول الأسـطول إلى سـوندا أرسل القائد سفنه الصغيرة للـتزود بالمـاء ولكن منعهـم الأهـالي مـن ذلـك ، فـنزل كثـير مـن بحـارة الأسـطول وضباطـه إلى السـاحل فحـاصرهم الأهـالي وقتلـوا الكثيرين منهم بما فيهم القادة الثلاثة د. لويـز ، و د. جورينمـو د. نورونهـا ،

وروي دياز أجويار . ولم تستطع سفن الأسطول التدخل لصعوبة مناورتها نتيجة الحمولة الكبيرة والمصادرة من السفن الأخرى ونزول أغلب البحارة المدفعيين إلى الساحل . ولم ينزل القائد الأعلى لإنقاذهم ، وذلك لصعوبة الأجواء وهيجان البحر حول الجزيرة . وبدخول موسم الأمطار (المانسون) لم يتمكن القائد البحري لورينو دي بريتو من الانتقام من الأهالي ، أو الحصول على الهولنديين ، فغادر الميناء إلى ملقا ، ووصل إليها في ١٠ يوليو ١٥٩٨ وبقي فيها إلى يناير من العام التالي متوجها إلى جوا ، وقبل مغادرته حاول البحث عن البريطانيين المذكورين ، ووصلته أنباء بأنهما قد تسلقا سفينة راسية في ميناء كويدا على بعد ستة فراسخ من ملقا ، ولكنه لم يتوجه لاعتقالهم رغم مطالبة قائد حامية ملقا والضباط المرافقين . عندها أرسل نائب الملك يأمره بالتوجه إلى جوا ، وبمجرد وصوله إلى هناك أخبره سكرتير نائب الملك بأن عليه التوجه إلى منزل للإقامة الجبرية حتى يتم التحقيق في بعض المخالفات التي ارتكبها .

وقرر نائب الملك دعوة المجلس الحاكم لنظر القضية وإصدار الحكم فيها ولم يقبل أعضاء المجلس بذلك ولأسباب خاصة قرروا إحالتها إلى المحاكم العادية قبل أية قضية أخرى ونتيجة لذلك حكمت المحكمة على القائد المذكور بغرامة مالية كبيرة وتعيينه قائدا على حامية (سفالة) . يقول كوتو : " إن نائب الملك أرسل لورينو دي برتو قائداً لحامية سفالة وذلك بعد إعادة الاعتبار له وتبرئته من التهم الموجهة إليه ، وبعد ثلاثة أعوام عين قائداً لحامية موزمبيق ، حيث قاد في ١٦٠٩م حملة تأديبية ضد عدد كبير من (الكفرة) (يبدو أن الكفرة مسمى محلي للسكان وربما كانت هذه التسمية مأخوذة من العرب المقيمين هناك للسكان الأصليين) وخسر فيها المعركة ، وكانت خسائره البشرية كبيرة جداً مما أدى إلى تجريده من أوسمته ورتبته ، وكانت تلك هي نهايته العسكرية .

ورغم فشل أسطول لورينو برتو في تحقيق مطالب نائب الملك فقد استطاع أسطول برتغالي آخر تحقيق ذلك دون أن تكون مسئوليته القيام بهذا العمل .

فقد كتب كوتو مرة أخرى : " بينما كان لورينسو برتو في سوندا لم

يكن أولئك الذين في ملقا يدركون قرب الأسطول الهولندي (الإنجليزي) منهم ، وبينما كان الأسطول البرتغالي المتوجه إلى الهند من ملقا يستعد للإبحار (كان هذا الأسطول مكوناً من سفينة ماجويل دي كونها الذي كان سينقل الضابط المسئول عن حامية ملقا لانتهاء فترة عمله والذي كان يدعى فرانسيسكو دا سلفا دي منزيس ، وكان في نفس الوقت قائداً لهذه السفن في طريقها إلى جوا . وكانت هناك سفينة أخرى في الصين وقبطانها فيرناد دي أليدا وعدة سفن أخرى) .

قبل مغادرة هذا الأسطول ملقا توجه القبطان جوجومي فايو - يسبقه بيوم واحد - إلى الهند في اليوم التاسع وعلى بعد ثلاثين فرسخاً من ملقا وقرب جزيرة بولو بار سيلار ، شاهد سفينتين هولنديتين (إنجليزيتين) ، فعاد أدراجه متوجهاً إلى ملقا مرة أخرى ومرسلاً (بلم) في المقدمة لينذر الأسطول المتواجد فيها بقرب أسطول العدو ويخبر فرانسيسكو دا سلفا دي منزيس عن هذا الأسطول . بوصول هذا النبأ ، قام القائد المذكور بجمع كل الضباط المتواجدين لاستشارتهم حيث قرروا عدم التوجه إلى الهند والصمود لمحاربة سفن العدو .

عادت السفن البرتغالية إلى ملقا وكانت في مقدمتها سفينة (جوجومي فايو) .

ما إن شاهدت سفن العدو السفن البرتغالية حتى رفعت الأعلام الملونة والبيضاء بدعوى أنها سفن تجارية قادمة إلى الميناء . ورست هذه السفن قرب سفينة جوجومي فايو . وما هي إلا ساعات حتى اشتعلت حرب المدفعية بين الأسطول البرتغالي وبينها فقد فيها أسطول العدو العتاد وأصيبت سفنه وقتلت ابنة فرانسيسكو دا سيلفا دي منزيس وخادمتها بقذيفة مدفع ، وانفجر مخزن البارود لقائد الأسطول المعادي وفر هذا الأسطول المصاب إصابات سيئة من ميدان المعركة . وأرسل الأسطول البرتغالي رسله إلى ملقا لإخبار حاميتها بالأحداث ونتائجها ، وتوجه بعد ذلك إلى كوشن .

أرسل قائد حامية ملقا سفنه للبحث عن أسطول العدو فوجدوه في ميناء كويدا وقد أصيبت سفنه ، وقتل الكثيرون من بحارته وجرح عدد كبير من الباقين ، وغادر الأسطول الإنجليزي

ميناء كويدة أوكده في سفينة القائد متوجهين إلى البنغال .

الهولنديون في الشرق

في عام ١٥٩٨م توجه أول أسطول هولندي إلى الشرق ، وكانت سفينتا القيادة (الأسد واللبؤة) تحت قيادة الرهيب كورنيلوس دي هوتمان (Cornelis de Houtman) ، والربان الرئيسي رجل إنجليزي يدعى جون ديفس (John Davis) والذي يعتبر الوحيد الذي كتب عن هذه الرحلة والتي هلك فيها القائد الأعلى وكثير من مرافقيه .

بدأت هذه السفن الإبحار من فلشنج (Flushing) في ١٥ مارس ١٥٩٨ ووصلت في ٢١ يونيو ١٥٩٩م إلى ميناء أشن ، ويعتبر الميناء الرئيسي لتجارة الفلفل الأسود في أرخبيل الملايو . وكانت هذه السفن أول سفن أوروبية بعد البرتغاليين تصل إلى هذا الميناء . وكانت بهذا أول محاولة لكسر الاحتكار البرتغالي . ولكن ولسوء الحظ انتهت بكارثة عظيمة .

ولقد كانت نصائح الملك الدائمة في أسبانيا والبرتغال ، أن يقوم رعاياه بمعاملة ملك أشن معاملة جيدة وهذا إنعكس على الهولنديين عند وصولهم إلى هذا الميناء . ويذكر كوتو تفاصيل الأحداث كما يلي : " قبل أن يغادر دي لويس دي جاما إلى هرمز ، جاء إليه سفراء من أشن وقام باستقبالهم احسن استقبال ، وفي أبهة زائدة ، وبحضور كل الضباط والشخصيات الكبيرة المتواجدة في جوا آنذاك . وقد أجزل لهم العطاء ورعاهم لحين موعد مغادرتهم إلى أشن ، لا أعلم الغرض من زيارتهم ولم يتم تسجيل الزيارة في سجل الدولة (كوتو يعتبر مؤرخاً للهند في تلك الفترة الزمنية ، وله حق الإطلاع على السجل) . على كل حال ، لقد عادوا راضين عن زيارتهم في ٣ مايو ١٥٩٩م . عادوا إلى ملكهم حاملين له الهدايا في سفينة كبيرة يقودها لويس ماسيدو بوتو (Luiz Machedo Boto) " .

في ٣ أكتوبر ١٦٠٠م وصل إلى جوا نائب الملك المعين حديثاً إيرس دي سلدانا (Aires de Saldanha) ،

وتوافق ذلك مع مغادرة الأساطيل جوا (هذه الأساطيل غادرت بأمر من نائب الملك السابق دي جاما) .

بعد مغادرة سفينة السفراء وصلت إلى قلعة ملقا حيث نزل منها السفراء واستقبلوا أحسن استقبال ، حيث كان ذلك سوف يؤدي إلى الأمن والسلام لهذه الحامية ، خاصة إذا ما علمنا أن الملك أشن قد هاجم هذه القلعة عدة مرات ومنع عنها سفن الصين واليابان .

قام قائد حامية ملقا فرنو دي البوكيرك ، بإرسالهم إلى بلادهم بصحبة ألفونسو فينسنت ، حيث كان معروفاً لدى الملك ، ويرافقه الأب أمارو من رهبان الأب القديس أغسطين ، لعلمه باللغة وقيامه بالترجمة .

عند وصول سفينة ملقا إلى هناك وجدت سفينتين هولنديتين في ميناء أشن . هذه السفن هي نفس السفن التي اشتبكت مع سفن د. جورنيمو كوتينهو في جزيرة سانتا هيلانا .

ودخلت سفينتنا الميناء ، ونزل سفراء الملك ومعهم سفيرنا وكثير من المرافقين وعدد كبير من المستقبلين ، أرسلهم الملك لذلك وتمت مقابلة الملك ، وأكرم وفادتهم ، وفرح بالهدايا المرسلة من نائب الملك في جوا .

انتهز الفونسو فينسنت خلوته مع الملك والترجمان وطلب من الملك دعوة البحارة وضباطهم المتواجدين في السفن الهولندية إلى وليمة ، والتخلص منهم جميعاً وقتلهم حيث أنهم قراصنة (ويذكر جون ديفيس أن الملك أخبر دي هوتمان بما طلب منه البرتغالي ، وأبدى رغبته في التعاون معه ، وأهداه كيساً من الذهب) ، وطلب منه مساعدته ضد أسطول ملك جوهر (مملكة في الطرف الجنوبي من ملقا) وكان في حالة حرب معه .

استعد أسطول ملك أشن لمهاجمة أسطول ملك جوهر ، والتحق الأسطول الهولندي به مقابل شحنة كاملة من الفلفل الأسود . ومن مختلف المصادر توجد ثلاث روايات تذكر مصير الأسطول الهولندي . الأولى منها تؤكد دعوة الملك للقائد الهولندي وقياداته إلى وليمة حسب طلب القائد البرتغالي الفونسو فينسينت ، وأهلكهم جميعاً . أما الرواية الثانية فتؤكد موت الطاقم الهولندي بالسم الذي دس لهم في النبيذ على ظهر السفينة . والرواية الثالثة

وكتبها جون ديفيس ويؤكد فيها الرواية الثانية ، ولكنه يذكر أن العدد المتبقي من الهولنديين كان صغيراً ، لذا قام بإغراق إحدى السفينتين وأبحر بالثانية .

في أول مايو ١٥٩٨ أبحرت ثماني سفن تحت قيادة جاكوب كورنيلز فانيك (Jacob Cornelisz Van Nick) و ويبراند فان واريجيك (Waybrand Van Warwijek) وغادرت هذه السفن ميناء تيكسل (Texel) متجهة إلى الشرق ، وصل ثلاث منها في نوفمبر إلى بنتام والخمس الباقيات بعد شهر من ذلك التاريخ . في ١١ يناير ١٥٩٩ غادرت أربع سفن منها تحت قيادة فانيك مارة بسومطرة ، وبعد توقف في سانتا هيلانة ، وصلت إلى تيكسل مرة أخرى في ١٩ يوليو ١٥٩٩م .

أما السفن الأربع الباقية ، فقد غادرت بنتام في ٨ يناير ١٥٩٩ تحت قيادة فان واريجك وجاكوب فان هيمسكرك (Jacob Van Heemskerk) ووصلت أمبووينا في ٣ مارس (بعد أن تعرضت في الطريق لاعتداء من أهالي جزيرة أريسابايا وفقدت عدداً من الرجال غرقاً واسترجعت بعض السجناء مقابل دفع غرامات مالية) .

في ١١ مارس غادرت اثنتان من السفن الأربع تحت قيادة فان هيمسكيرك ووصلت إلى باندا ، وفي ٥ يوليو عادت إلى بانتام ومنها إلى سانتا هيلانا . في أول يناير ١٦٠٠م غادرت هذه السفن سانتا هيلانة ووصلت إلى تيكسل في ١٩ مايو ١٦٠٠م . أما السفن الباقية وتحت قيادة فان واريجيك فقد وصلت في سبتمبر ١٦٠٠ إلى تيكسل . وقد نشرت الصحيفة اليومية خبر الرحلة التي قامت بها السفن الثمان إلى الشرق .

ويبدو أن معركة بحرية كبيرة قد وقعت قرب جزيرة سانتا هيلانا ، سقط فيها العدد الكبير من القتلى من الهولنديين والبرتغاليين . وتذكر المصادر البرتغالية بأنه ما إن غادرت السفن الهولندية هذه الجزيرة حتى ابتدأ البحارة البرتغاليون بعملية إصلاح السفن ، وبعد خمسة أيام من مغادرة أسطول هولندا (في ٣٠ أبريل وصلت السفينة نوسا سنيورا داباز . وفي ٣مايو وصلت السفينة كونسيساو . وفي ١٦ مايو وصلت سفينة القيادة في جوا وأخبرهم

دييجو ديسوزا عن المعركة مع الهولنديين وساعدوه في إصلاح السفن . وفي يوم وصول سفينة القيادة ، وصلت سفينتان من أسطول هولندا ، ولكن بعد رؤية سفن البرتغال ابتعدتا عن الميناء الرئيسي إلى جزء آخر من الجزيرة ، ولم تكن الرياح مناسبة لمهاجمتهم . وقد أهمل دي جورتيمو كوتينهو وصولهم في البداية ، ولكنه أبدى استعداده لمهاجمتهم إذا ما كانت الظروف مناسبة .

أرسل قبطان السفن الهولندية رسله لمقابلة قائد السفن البرتغالية وطلب المساعدة في الحصول على الماء ، ورفض القائد البرتغالي ذلك مدعياً أنهم إذا كانوا فعلاً أصدقاء ، فعليهم الاقتراب بسفنهم منه (وكان يقصد تدميرهم) .

في ٢١ مايو ، وصلت السفينة التي يقودها د. فاسكو دا جاما (D. Vasco da Gama) وأطلق مدافعه على السفن الهولندية فاضطرت إلى مغادرة الجزيرة (سانتا هيلانه) وأبحرت إلى سواحل غينيا ، ويذكر البحار المرافق للسفن الهولندية أنهم لم يبحروا إلى سواحل غينيا ، بل واصلوا رحلتهم إلى هولندا وقد أصابهم العطش الشديد . أما عن الأسطول البرتغالي فقد فشل في البحث عن السفن الهولندية ، فتوجه إلى جوا بقيادة دي جورينمو كوتينهو .

إلى جانب السفن الهولندية المتجهة إلى الشرق حول رأس الرجاء الصالح ، فقد أرسلت هولندا أسطولين في اتجاه الجنوب الغربي وكان الأسطول الأول مكوناً من خمس سفن تحت قيادة جاكس ماهيو (Jacques Mahu) وسيمون دي كورديس (Simon de Cordes) وكان القائد البحري وليام آدم (William Adam) في إحدى هذه السفن .

استطاعت هذه السفن الوصول إلى موانئ اليابان بعد إبحارها من روتردام في ٢٧ يونيو ١٥٩٨ . وقد انتهت سفن هذا الأسطول إلى كارثة عظيمة . وقد ذكرت تفاصيل هذه الكارثة في عدة مصادر ، ولكننا سوف نعتمد على مصدر كوتو لدقته .

في عام ١٦٠٠ وصلت إلى جزيرة اليابان سفينة هولندية وتوجهت إلى ميناء شاتيفاي (Oita) في مملكة بانجو وحيث كانت الرياح غير مناسبة في هذه الفترة من السنة ، فإنها وفي اعتقاد التجار هناك لم تأت من الصين أو

الفلبين ، ولكن من (أسبانيا الجديدة) ونعتقد أنها كانت متجهة إلى مكان آخر ولكن دفعتها العواصف إلى اليابان ، فأرسل التجار البرتغاليون المقيمون في الميناء إلى ملك شاتيفا يطلبون منه الاستعداد للمساعدة إذا ما تطلب الأمر ذلك . في نفس الوقت توجهوا إلى السفينة في عرض البحر وما إن وجدوا بأنها هولندية حتى عادوا مرة أخرى إلى الميناء . وما إن بلغت أنباء هذه السفينة إلى البرتغاليين المقيمين في نجازاكي ، حتى أرسلوا إلى تيرازافا (Tirazava) حاكم هذا الإقليم يخبرونه أن بحارة هذه السفينة (من اللوثريين أعداء البرتغال) وأعداء للمسيحية كلها ، فاتجه حاكم الإقليم إلى بنجو وطلب من السفينة الهولندية دخول الميناء ، وأنزل حمولتها ودون كل ما بها في دفاتر رسمية ، تذكر لنا هذه الدفاتر مايلي :

- اثنا عشر صندوقاً من الأقمشة الصوفية
- صناديق كريات الزجاج - مرايا ونظارات - خمسمائة بندقية - وخمسة آلاف من الكريات الحديدية - وثلاثمائة طلقة - وبراميل بارود - وثلاثة صناديق تحتوي على معاطف خاصة - مسامير حديدية - مطارق وأشياء أخرى مختلفة . ويبدو من ذلك أنهم قد جاءوا فاتحين ويريدون الاستقرار ، وأخبروا الحاكم بأنهم جاءوا للبحث عن السفن الهولندية التي غادرت هولندا في ١٥٩٩ متجهة إلى سوندا ومالوكو ولا يعلمون أي شيء عنها حتى الآن .

ويواصل كوتو روايته ، ويذكر ما حدث لهذه السفن كما يلي :

" في عام ١٥٩٨م خرجت خمس عشرة سفينة من هولندا (روتردام) متجهة إلى الشرق ، وكانت تبحر في تشكيلة واحدة حتى وصلت إلى ميناء غينيا ، وانقسمت هناك إلى ثلاث مجموعات ، عبرت إحداها رأس الرجاء الصالح ، واتجهت إلى سوندا ، ومن هناك اتجهت اثنتان منها إلى ميناء أشن ، ولا نعلم ما حدث لباقي الأسطول . أما السفينة الثالثة والتي كانت تحت قيادة بلشازار دا كوردا (Balhazar da Corda) (في الحقيقة يخطئ كوتو هنا والاسم الصحيح للقائد هو جاكس مايهو والذي بعد وفاته أصبح سيمون دا كوردا قائد السفينة) هذه السفينة اتجهت إلى أنجولا ، ومنها إلى مضيق ملجاس وبعدها إلى إحدى الجزر حيث قتل عدة

رجال منهم بحثاً عن الماء . ومن هناك اتجهت إلى قلعة شيلي في بيرو ، فقاموا باقتحام القلعة وقتل ساكنيها ، فقام الأسبان بالهجوم عليهم في الداخل وقتلوا خمسة عشر منهم ، وفر الخمسة الباقون إلى سفينتهم .

في عام ١٥٩٨ اتجه ثاني أسطول هولندي إلى الشرق الأقصى . وكان هذا الأسطول مكوناً هذه المرة من أربع سفن تحت قيادة أوليفر فان نورت (Olivier Van Noort) ، وأبحر هذا الأسطول في ١٣ سبتمبر من ذلك العام . وقد صادف الرحالة تينحسيرا (وهو في طريقه من مانيلا إلى أكابولكو في ٢٤ نوفمبر ١٦٠٠م) سفينتين من هذا الأسطول ، نجا منهما بأعجوبة . ولكن اشتبكت هذه السفن في معارك ضارية قرب الفليبين مع السفن الأسبانية في ٢٤ نوفمبر و١٤ ديسمبر ، وفقد كل طرف سفينة واحدة . واتجه فان نورت من هناك إلى بورنيو حيث وصل إليها في ٢٦ ديسمبر وبقي بها حتى ٤ يناير ١٦٠١ ومنها إلى جاوة وسانتا هيلانه ، وأخيراً روتردام في ٢٦ أغسطس ١٦٠١ وكان أول هولندي يبحر حول العالم .

وبينما كان الهولنديون يضاعفون من أساطيلهم إلى الشرق في عام ١٥٩٨ ، لم يتمكن البرتغاليون من إرسال أية سفينة ، خوفاً من الأسطول الإنجليزي الذي ينتظرهم ليدمرهم ، ولكن كان حظ البرتغال أفضل من ذلك في عام ١٥٩٩ حيث يذكر كوتو : " وصلت أنباء إلى البرتغال بأن هولندا تهيئ عشر سفن للإبحار إلى الهند ، في هذا العام قامت حكومة البرتغال ممثلة في مجلس التجار بالعزم على إرسال أسطول برتغالي جيد التجهيز إلى هناك بقيادة دي جورئيمو كوتينهو - في بداية فبراير ١٥٩٩ ابتدأت الرحلة بأربع سفن وتأخرت ثلاث أخريات . وفي السفينة إس روك أبحر القبطان دييجو ديسوزا . وفي إس سماو القبطان الجاليسيان ، وسيباستيو داكوستا في السفينة كونسيساو ، وفي السفينة باز ، جو بانير فيريرا - ومعهم جو رو دريجوس دى تورس ، وكان مرسلاً من ملك البرتغال لكي يتسلم مكان فيدرو دا فازندا في جوا .

وفي شهر مارس ١٥٩٩ لحقت بهم السفن الثلاث الأخرى ، وكانت الأولى كاستللو وقائدها سيما دي مندوكا ، وجو سواريز في السفينة سي. مارتينو ، وجاسبر تنريدو في السفينة سي. ماتيوس

والذي طلب منه قيادة قلعة مسقط . وكان على هذه السفن البقاء في الهند بعد الالتحاق بالأخريات في موزمبيق .

ورحلت السفن جميعها إلى جوا ماعدا واحدة (كاستيللو) التي فقدت في الطريق قرب موزمبيق ، واستطاع ربانها سيما دي مندوكا الوصول إلى الشاطئ مع مجموعة من بحارتها ، ولكن وافتهم المنية بعد ذلك . ومع هذا الأسطول وصلت أخبار وفاة دي فاسكو ابن الحاكم العام لجوا ونائب الملك ، وأيضا أخبار وفاة الملك فيليب (١٣ سبتمبر ١٥٩٨م) .

ويعود كوتو إلى الأسطول الهولندي قائلاً : " ثلاث من هذه السفن تحت قيادة شينفي فان هاجن وقد غادر هولندا في ٢٦ أبريل ١٥٩٩ وبقي عدة أشهر في موريشيوس ووصل بعدها إلى بتنام في ١٣ مارس ١٦٠٠ ومنها إلى أمبوينا وباندا حيث لاقت السفن الصعوبات من أهالي هذه المناطق والسفن البرتغالية وعادوا إلى بنتام ، وهنا التقوا بست سفن هولندية ورحلوا معاً إلى سانتا هيلانه ومنها إلى هولندا في يوليو ١٦٠١م .

في ٢١ ديسمبر ١٥٩٩ توجهت أربع سفن هولندية إلى الشرق تحت قيادة بيتر بوت . وفي ٢٦ أبريل ١٦٠٠ غادرت سفينتان تحت قيادة فان كاردن إلى مدغشقر والمالديف ووصلتا إلى بنتام في ٦ أغسطس ، ولحقت بهما السفينتان الأخريان بعد ذلك .

أرسلت هاتان السفينتان بواسطة القبطان بوث إلى بريامان ، ولكنهما توجهتا إلى سومطرة ومنها إلى أشن في ٢١ نوفمبر حيث أخبرهم بعض الهولنديين المعتقلين هناك عن سوء المعاملة التي يلقونها من ملك أشن ، فغادرها فان كاردن إلى بنتام ووصل إليها في ١٩ مارس ١٦٠١م .

في ٢٩ مارس وصلت ثلاث سفن هولندية إلى بنتام توجهت واحدة منها إلى مولكاس وغادرت الاثنتان الباقيتان مع فان كاردن إلى هولندا عن طريق سانتا هيلانه .

ويبدو أن الأساطيل الهولندية التي توالى وصولها إلى أرخبيل الملايو ، أثارت القلق والمخاوف في جوا ، ولكن ما يثير التعجب أن غرفة تجارة جوا لم تذكر في رسائلها إلى ملك البرتغال أي شيء عن هذه المخاوف . ورغم إرسالها

في نفس الوقت الدعم الحربي إلى ملقا وقلاع أمينو وملاكو ، ورغم تأكيد كوتو في مراسلاته عن نية البرتغاليين منع الهولنديين من القيام بأية أعمال تجارية في الهند أو أرخبيل الملايو ، يبقى الصمت ملازماً مراسلات نائب الملك إلى لشبونة .

وقد ازدادت السلطات البرتغالية في جوا توتراً عندما أسست شركة الهند الشرقية الإنجليزية في عام ١٦٠٠ ، واتحدت الشركات التجارية الهولندية في شركة واحدة أطلق عليها شركة الهند الشرقية المتحدة في عام ١٦٠٢ . هنا وفي هذه الظروف فقد البرتغاليون هدوءهم وأرسلوا الاستغاثة الآتية في عام ١٦٠٣ إلى ملك البرتغال :

" مع أن أمور الجنوب تحتاج شرحاً أوفر ، إلا أننا سوف نختصر . ان الجنوب ملئ بالهولنديين الآن . وفي هذا العام استولوا على سفينة متجهة من سامتوم إلى ملقا وكانت محملة ببضائع تبلغ قيمتها ثلاثمائة ألف كروزادوس (عملة برتغالية) ، ومبالغ من المال تبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف مرسلة إلى البنغال . وقد صادروا أغنى وأعظم سفينة غادرت الصين في التاريخ ، وكانت محملة بكل شيء من الهند ، وانتظروها قرب مضيق ملقا ، وفي نفس الوقت صادروا سفينة صينية . إن قلعة ملقا لم تزود ولا تستطيع تزويدها . وقد أصابت مدينة ملقا المجاعة بأسباب منع الهولنديين لسفن التموين من التوجه إليها .

إن هذه الأمور تحتاج قراراً سريعاً . وهو لديكم يا صاحب الجلالة ، لقد أرسل لنا ملك أشن سفراءه يطلبون بناء قلعة في أرضه ، ولكننا لم نوافق . لذا نجده قام بالاتصال بالإنجليز من أجل ذلك . لذا نرجو جلالتكم أن ترسلوا لنا أسطولاً قوياً ويتم توجيهه إلى ملقا وليس للهند خوفاً من عدم وصوله إلى الجنوب حيث سوف تنتهي الهند فيما لو فقدنا الجنوب " .

كانت هذه الحالة سائدة في الشرق الأقصى عندما غادر بيدرو تينحسيرا الهند في بداية ١٦٠٤م عائداً إلى بلاده .

[يتبع]